التثاقفية نغم جديد للتعايش:(رؤية أكسل هونيث)

الباحثة: الهاشمي إيمان/ إشراف: د. العربي ميلود
جامعة مستغانم

إن الحديث عن الفلسفة وارتباطها اليومي هو محاولة لإيجاد وتموقع جديد للإنسان المعاصر لما يشهده من أزمة نتيجة لتداعيات عصره ،و هذا الأخير الذي يشهد تطورا مرعبا في عالم التقنية والعلم جعله يلمس واقعه متأملا فيه أكثر ، كلنا نعلم أن العالم عرف صراعا بين عالمية عالم الشرق وعالم الغرب وهذا الصراع والتصادم نتج عنه احتكاك وتعارف بين الحضارات سواء ثقافة المستعمر أو ثقافة المستعمر ولكن في عصرنا الآني هناك نوع آخر من التعارف والاحتكاك الثقافي الذي نتج عن العولمة وتداعياتها في عصرنا اليوم أو ما نسميه الثثاقف أو الثثاقفية وكل يصب في فلسفة الثقافة، فالثثاقف هو عملية ربط إن صح القول بين مختلف الثقافات أو هو الثقافة العابرة للقارات لكن البعض نظر للثثقافية على أنها استعمار جديد مستمدين بذلك على خلفيات الاستعمار العسكري الذي شهده عالم الشرق و الذي كان هدفه الأول بعد نهب الخيرات والثروات هو محو الهوية الأصلية فالثثاقف بحسب بعض الانتروبولجيين انه يحتوي على معنيين معنى ظاهره التواصل والتعارف والتحضر

ومعنى خفي باطنه الاستعمار والسطو على الهوية. وهذا ما يؤكده لنا كل تعريف للثثاقف "تلك الظواهر التي تنشأ عن الاحتكاك المباشر ومتواصل لجماعة أفرادها ثقافتها المختلفة".(1)

"كذلك هي التغيرات التي هي أنماط التفافة الأصلية لكل من هذه الجماعة "(2) وبالتالي ما نستنتجه أن الثثاقف هو مظهر جديد ومفهوم حداثي للاستعمار القديم موالي لمتطلبات العصر وهذا كله يجعلنا نستفسر عن جعل الثثاقف مدخلا للتضافر والتعايش وجعله نوع من أنواع الضيافة والاعتراف.

إذن الثثاقف هو استعمار أو نوع من الاستعمار المعاصر وأن الثثاقف هو رمز من رموز الاستعمارية وهذا ما يجعلنا أن نطرح موضوع العولمة وتداعياتها والغزو والثقافي والتوفر الهائل للمعلومة الذي نشهده ولازال يعرفه العالم؟ أليست العولمة غزو العولمة جعلتنا نتواصل مع الغير ونتبادل ثقافات غير ثقافة أرضنا، أليست الحداثة كولونيالية ؟إذن العولمة عبارة عن " العملية التي يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب"(3)

فمن ينظر على أن الثثاقف هو استعمار سيفهم أن تبادل الثقافات و تداخلها سواء عولمة أو ثثاقفية أو تداخل وأن هذه المصطلحات لها تداعيات فهي عبارة عن تنوير وتحديت وتكوين الثقافات وقيم وعادات جديدة ولكن السؤال الذي لابد من طرحه من يتأثر بمن ؟ ومن يؤثر؟ القوي هو المسيطر أم الضعيف، عالم الهيمنة أم عالم الرحمة؟ فكل هذه التساؤلات تؤكد لنا نتيجة واحدة على أن العولمة يمثل " شكلا رأسماليا متطرف من أشكال الحداثة"(4) وهذا ما يجعل البشرية في مأزق هذا الاختلاف في الثقافات والتنوع فيها يجعل العالم بأسره في صدام وصراع وتطرف حقيقي لو تمعنا وحققنا في الواقع لوجدنا أنه فعل هناك استعمار معاصر استعمار التقنية مبلورا تحت فكرة العولمة والكونية ،استعمار تقنيا مدمرا للهوية باسم تقدم الإنسانية و التحضر لكنه في حقيقة الأمر استحواذ عسكري ايدولوجي كما يؤكد ذلك التريكي " عصر الإمبراطورية الأمريكية ... نحاول القضاء على المواطنة تجعل الناس دون موطن ومسكن و دون هوية رسمية"(5) و كانت هذه ذريعة استعملها الغرب لاحتلالنا مبررين أفالهم الشنيعة في الشرق هنا نستحضر "ماركس وصديقه انجلز وموقفهما من الاحتلال البريطاني الفرنسي إذ نجد ماركس يقول " تقتيل لأجل تثقيف الهنود و إدخالهم نمط الإنتاج الحديث"(6) أما انجلز " لا ننسى أن هؤلاء البدو هم شعب من اللصوص والاستعمار سيجبر المجتمعات المتخلفة على التقدم والتحضر "(7) هذا كله كان استعمار ظاهرا بالسلاح أما اليوم هو حرب بالقلم والإعلام والتلفزيون، فالعولمة اليوم تنقل إلينا عادات غريبة إلى الشرق مثلا ظاهرة الاحتفال بمئة يوم قبل امتحان البكالوريا وغيرها .. فبعد نهاية الحروب والصراعات بين الشرق والغرب ظهر صدام حضاري تابع للأول بل هو

استكمال له "وإبان مرحلة الصراع ضد الاستعمار تتم في المرحلة التي نطلق عليها مرحلة التخلص من الاستعمار و ما تبع ذلك "(8) أي ما قصد به أن العولمة ومصطلحات الثقافية ما هي إلا استعمار لبق ومهذب واختراق ناعم و سلسل نحو عالمنا الشرقي.
فلو نظرنا إلى عالمنا الشرقي و إلا قارنا بعراقنا الأمس وعراقنا اليوم لنجده في أسوء أحواله منذ عهد الحجاج بن يوسف "فالحالة التي عليها الشعب العراقي بعد التدخل الأمريكي باسم حقوق الإنسان هي أسوء الأحوال "(9)
أكيد أن العولمة سلاح ذو حدين فيها ما هو سلبي وما هو إيجابي ولكن كيف بوسعنا نغير هذه النظرة الضيقة للمفهوم وننفي تلك النظريات المؤكدة لصراع الثقافات وأن نجعل من هذا الصراع تضافرا وتداخلا وننتقل من نفي الآخر إلى إثباته مهما كانت صفته فالعولمة بمفهومها الكامل هي ""انتقال المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئ إلى حالة الاقتراب والتوحد ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق"(10) لذا يجب علينا أن نؤسس لهوية كونية قائمة على التضافر التفافي والتواصل نحقق فيها منطق التفاهم والتحاور والاتصال مهما كانت ثقافتنا وأديانا ومواقفها والعولمة هي هدفها الأساسي أن نتعايش كجيران في عالم واحد "كقرية كونية صغيرة تظم الأمم والشعوب وتتأكد فيها الحاجة إلى نظام قيمي مشترك"(11)، ومن أجل كونية حقيقية تعترف بالآخر من حيث هو آخر مغاير دون استقطابه ودون القضاء عليه فعلينا الآن أن نذكر نماذج كثيرة تدافع عن التضافر التفافي والاعتراف بالآخر المغاير والمختلف عن دواتنا هنا نجد الفيلسوف الفرنسي "ايمانويل ليفيناس" الذي يؤكد على ضرورة الانفتاح على الآخر وتأكيد الذات وإثباتها "الأنا ليس الكائن الذي يبقى دائما هو عينه، لكن الكائن الذي يبحث في الوجودعن التماهي"(12)، أي الذات التي تتعرف عن هويتها من خلال الآخر وهذا بامتياز الانفتاح الأصلي للتماهي ولتحقيق الجانب المنير والإيجابي للعولمة والتأكيد على عصر الثقافف وأن هذه الأخيرة ضد العبودية فلنتعايش ونعيش معا لابد من الثقافة من أجل فك ذلك الصراع مع الآخر المجهول والغريب والبحث عن وسائط ووسائل للعيش معا.
فقد لجأ "أكسل هونيت" إلى مبدأ الاعتراف بالآخر كفلسفة حياتية نستطيع من خلالها التعايش والتساكن و التجاور معا، لكنه يؤكد على أن الصراع هو طبيعة إنسانية ولابد منه للحفاظ على التوازن البشري، وأن كل إنسان كان يطلب أو يريد تحقيق ذاته على نحو أناني إذ أصبح صراع من أجل الوجود(13) والكل يخاف الكل وهذا الصراع نتج لعدة عوامل أهمها عدم شعور الذات معترف بها في المجتمع وحرمانها من بعض حقوقها الأساسية وتهميشها اجتماعيا مما أطلق على هذا المجتمع مجتمع الاحتقار " فالمرء يشعر بالازدراء مما يعني شعوره بإمكانية اندثار شخصيته وزوالها "(14)إذ يؤكد هونيت أن تجارب الاحتقار الاجتماعي التي يمر عليها الأفراد تقوم على ثلاثة أشكال : الشكل الأول متمثل في "الازدراء أو الاحتقار الذي قد يعترض له الفرد من الناحية الجسدية أو الفيزيائية "(15) بمعنى أوضح ذلك الاغتصاب الذي يتعرض له جسده فيشعر بالتبعية للغير أما الشكل الثاني "عندما يحرم من بعض حقوقه المشروعة"(16) أي حصوله على حقوقه بدرجات متفاوتة مع الآخرين مما ينتج عنه الشعور بعدم الاحترام و اللامساوات مع الغير ،أما الشكل الأخير يتمثل في الحكم على القيمة الاجتماعية لبعض الأشخاص بصورة سلبية"(17)، بمعنى أعمق ازدراء الآخر على المستوى المعياري فيشعر المرء بنوع من الاغتراب والتشيؤ في المجتمع الواحد ومن خلال هذه الأمراض الاجتماعية كما سماها هونيت يطلب الاعتراف المبني على أسس كي تعترف بالآخر " فمفهوم الهوية واللهوية هو الذي يقدم لنا مفهوم الاعتراف" (18)فاعتراف المتبادل هو الذي يحدد الوجود والاعتراف يقابله الوجود، فحسب هونيت كي يعترف بالآخر يجب أن نؤكد على قيمته الاجتماعية و تعترف بها " أن الذوات لا تستطيع الوصول لإقامة علاقة عملية فيما بينها إذ تعلمت كيف تتفاهم انطلاقا من منظور معياري"(19) فالاعتراف هو عملية تفاعلية بين الذات والآخر هدفها التأكيد على الإقرار بالغير وتحقيق قيم التحاور والاختلاف" الاعتراف هو نمط من الاحترام المتبادل الذي يتم بين المتحاورين أثناء عملية النقاش الذي يهدف إلى تحقيق التفاهم و الإجماع"(20) و بالتالي تأسيس لحياة اجتماعية واعية خالية من العنف و السيطرة و الازدراء ،و لا يكون ذلك بحسب هونيت إلا من خلال ثلاث نماذج معيارية تضمن و تؤطر العلاقة التذاوتية أولها :

1. الحب : يعرفها هونيت أنها "كل العلاقات الأولية والتي على غرار نموذج العلاقات الايروسية وعلاقات الصداقة والعلاقات العائلية"(21) فالمحبة هي علاقة تفاعلية بين الذوات من خلالها يشعر الفرد بقيمته ومكانته.
2. الحق أو القانون : حيث يقول " أن مثل هذا الشكل التقليدي من الاعتراف القانوني يؤمن حماية اجتماعية وكرامة الإنسانية للذات "(22) فالاعتراف القانوني يضمن حرية الأفراد واستقلالهم الذاتي.

3. التضامن : سمح للفرد بتحقيق ذاته لأنه ينجز أعمال لها قيمة و أثر لذا الأخر كي يشعر بالتقدير بدون ازدراء و مهانة إذ يقول " يفتح و للمرة الأولى الأفق الذي على المنافسات الفردية من أجل التقدير الاجتماعي ... دون أن يخضع الذوات لتجربة الذل"(23) إذن المحبة تعزز الثقة بالنفس والحق يضمن احترام الذات والتضامن يؤسس التقدير الذات وهكذا ومن خلال الاعتراف المتبادل نحقق الانصهار والاندماج بين الذوات ونفكك إلغازية ذلك الأخر الغريب البعيد فالاعتراف يجعلنا نعترف بذاتنا كأنا ذات فاعلية اجتماعية من خلال الغير ومن هذا المنطلق يسمح لنا أن نتقبل ثقافة الآخر مهما كان لونه أو دينه دون نسيان للهوية الخاصة و هذا ما يطمح إليه عصرنا و تقنياته من عولمة و تقنية و نتعلم ثقافة التنوع و الاختلاف " فلا توجد حضارة إنسانية واحدة بل حضارات متنوعة(24).

- الهوامش والاحالات:

1. جيرار لكلرك، الانثروبولجيا والاستعمار، ترجمة جورج كثورة ،كتاب الفكر العربي، الأدب ط1 ، 1982 ص87.
2. المرجع نفسه، ص87.
3. أحمد مجدي حجازي، إشكاليات الثقافة والمثقف في عصر العولمة ، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، دط،2008 ،ص19.
4. آلان تورين، براديغما جديدة لفهم عالم اليوم ، ترجمة جورج سليمان ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان ط1 -2011 ص57.
5. فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية ، الدار المتوسطية للنشر ، بيروت – لبنان ط 1 -2009 ص 110.
6. المرجع نفسه ص114.
7. المرجع نفسه ص114.
8. جيرار لكلرك ، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، تر جورج كثورة ، دار الكتاب الجديد المتحدة، د، ب ، ط1، 2004 ص31.
9. فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق ص 114.
10. أحمد مجدي حجازي، إشكاليات الثقافة و المثقف في عصر العولمة ص 19.
11. المرجع نفسه ص18.
12. EMMANUEL LEVRINAS TOTALITE ET INFINE ,ESSAIS SUR L ESCTEIORITE TRA KLUWER ARADIMIC ARTINUS INJIHOFF 1971..
13. أكسل هونيت، الصراع من أجل الاعتراف ، القواعد الاجتماعية الأخلاقية للمأزم الأخلاقية ، ترجمة جورج كثورة ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2005 ص 19.
14. كمال بومنير ، اتيقا الاعتراف عند أكسل هونيت ، مجلة ممارسات العدد 1 -2013 ص36.
15. المرجع نفسه 37
16. المرجع نفسه 38
17. المرجع نفسه 39
18. نور الدين علوش، مجتمع مختلف، نظرية نقدية جديدة ، مجلة اللوغوس عدد 1 -2012،ص114.
19. أكسل هونيت، الصراع من أجل الاعتراف، مصدر سابق، ص170.
20. كمال بومنير، قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الابيار – الجزائر، ط2012،1 ص104.
21. اكسل هونيت، الصراع من أجل الاعتراف، مصدر سابق ص175.
22. المصدر نفسه ص200.
23. المصدر نفسه ص 238
24. أرمان ماتلار، التنوع الثقافي والعولمة ، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفرابي مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ، ط1 -2008، بيروت لبنان ص20.